الموت وما بعده ...

قصة بقلم محمد زفزاف

من هنا مر الناس . ومن هنا عادوا الى الاكواخ وقد تبدلت خفايا اعماقهم . ان ذلك بالطبع لم يكلف الواحد منهم سوى بضع ساعات ، او ان شئت فبضع دقائق .. ما هي الا بضع دقائق وينسون .. فكأن العمياء ما ماتت ، وكأنها ما كانت في العالم شغل الناس وتأخذ نصيبا من وقتهم ..

في ذلك الصباح الباكر ، حملوا جثتها ليودعوها الى الابد . وكان الناس الذين يرافقون الجثة لا يتعدون الخمسة : ابنتها وطفلاها، ثم زوج ابنتها والفقيه الذي غسلها وقرأ عليها سورة قرآنية . كانت ابنتها وحدها هي التي لم تمالك نفسها .. هي وحدها التي كانت تتعثر بأحجار الطريق المدببة البيضاء ، هي وحدها التي تشعر بأن الموت عالم غامض يجب الاعتراف به ، والاستسلام له في كل لحظة طرق فيها الباب . اما الموت في ذهن الطفلين فقد كانت له صورة عجيبة . ان جدتهما سيأتي لها ملاك الليلة ، وسيوجه لها بعض الاسئلة فتجيب عليها بلا او نعم .. هل فعلت خيرا في الدنيا ؟ نعم .. هل فعلت شرا؟ لا . ثم سيأمر الملاك ملاكا آخر أصغر منه مقاما فيحملها هذا الاخير الى عالم عجيب ، حيث ستسترد بصرها وشبابها وتتزوج من رجل يروق لها . أما زوج ابنتها فلم يفكر في موت العمياء بتاتا .. ولكنه بعد ان اودعوها الحفرة وجد انه لم يفكر في موت شخص ما . فكأن احدا لم يمت . وبما أن العمياء كانت تضايقه في حياته ، وكانت في بيته جثة هامدة لا تفعل شيئا طيبا على الاطلاق ، فانه قد تخيلها الآن في ابشع صورة : جيفة نتنة ملقاة في حفير . وبعد ساعات قليلة ستنبعث منها ديدان منهومة تأكل كل شيء فيها حتى عظامها . ثم خطر له انها الآن في وضع مريح ، ممددة هكذا بلا مشاكل ، لقد خلصته وخلصت نفسها، وخلصت كل من يعرفها .. فهي لم تكن سوى وهم . لم تكن لها أي قيمة مادية . فبما أن لحظاتنا الحياتية القصيرة تقاس بقيمنا المادية ، وما نساويه وما نحققه على هذا المستوى ، فان العمياء كانت في حياة زوج ابنتها كيسا مثقوبا للادخار ، كل ما يوضع فيه يتلف للتو . اما الفقيه ، فقد تأمل طويلا في المسألة . ما معنى أن يموت المرء ؟ هذا سؤال طالما طرحه على نفسه كلما قام بعملية دفن وغسل . ولكي يجيب على سؤاله الذي يلازمه دائما فهو يعترف ببعض التحفظ ان الموت انما هو حد فاصل لما هو خير ولما هو شر في الانسان . ولكن السؤال يولد لديه اسئلة اخرى ويولد لديه اجابات اخرى . لماذا سيعاقب الانسان مع انه لم يختر وجوده ؟ لو انني لم اوجد ما كان هناك عقاب او جزاء . واذن فبما انني لم اختر وجودي فانه ليس من العدل أن أسأل عن وجود لست مسؤولا عنه . فالعقاب والجزاء انما يعنيان من تحمل مسؤولية الفعل . ويطيل الفقيه في هذه الاسئلة التي لا تنتهي ويشعر أنه بدأ يدخل الى عالم غامض يقال عنه أنه كفر .. يجب الا يناقش هذه المسائل . ويعترف ان ما يقوله عقله صائب ، ولكنه يخاف من هذا الشيء اللامحسوس الذي علمه اياه القرآن والسنة ، وما حفظه في المتون الكبرى ... لقد ودعوا العمياء . ومع أنها لم تكن بذات قيمة مادية فقد شغلت بعضا من تفكير الناس .. وفي كل خطوة تخطوها ابنتها كانت تشعر انها تهوي الى قرار سحيق . وكان الطريق الترابي الممتد من المقبرة الى الاكواخ الجاثمة في الاوحال يضيق ويضيق ، حتى لكأنه اغلال تشد على الاقدام التي لا تحدث اي صوت او صدى . ويبدو ان الحزن قد طار فجأة من مخيلة الطفلين . فانشغل احدهما بالتقاط قطع الزجاج الملونة المتناثرة في الرمل ، والتي تعكس اشعة شمس الصباح الملتهبة . وفي الكوخ شعرت البنت ان شيئا ما ينقصها . وشعر الطفلان ان شيئا ما ينقصهما ، بينما شعر الزوج بشيء لم يفهم له معنى . هل ينقصه شيء ؟ أم لا ينقصه ؟ انه لا يدري بالضبط .

***

ماتت العمياء تلك الليلة بلا مقدمات . ماتت فجأة . في الساعة التاسعة ليلا ارخت ذراعيها وتمددت فوق سرير خشبي له حشية من الحيش . تمددت على ظهرها . وكانت تتنفس بصعوبة وتحاول تحريك قدميها الباردتين . لقد قيل لها بأن الموت يصعد من القدمين الى الرأس . في تلك الساعة كانت الكلمات تختلج في أعماقها دون أن تقفز خارج فمها الثنتن الذي يبين عن ناب عفن اصفر . عندما شعرت ان الحالة غير طبيعية اجهدت نفسها وحاولت ان تتكلم . وفي النهاية تكلمت . لم يكن احد يشعر بآلامها . فابنتها كانت تعتقد انها نائمة كالعادة . وانها ممددة كما تفعل طيلة اوقاتها . فبما انها لا تفعل شيئا فهي تلتزم سريرها الخشبي . ثم تبدأ في التقلب فوقه وهو يئن ويطقطق . وفي بعض الاحيان تلتزم الهدوء والسكون فلا يسمع لها سوى شخير رتيب .. شخير ممل ومفث . وقبل ان تموت تلك الليلة شعرت انها من غير شك قادمة على تجربة غريبة .. وحاولت ان تتحرك فوق السرير فلم تستطع . وصرخت كأنها تتكلم في اعماق بئر عميقة . ونادت ابنتها :

ـ حسناء .. اني اموت .

ولكن احدا لم يسمعها آذ ذاك . كانت ابنتها حسناء خارج الكوخ. ذهبت لتتبرز في الخلاء . اما الطفلان فقد كانا منشغلين بلعبة طريفة. واعادت العمياء الكرة . ولكن احدا لم يسمعها . وكان لصوتها رنة محزنة قاتمة : حسناء .. حسناء .. ولكن عبثا . فحسناء ذهبت لتتبرز في الخلاء . ثم .. ماذا بامكان حسناء ان تفعل ؟ هل تستطيع ان ترد موت العمياء ؟ هل الموت جرو صغير يفر بمجرد أن نلقيه بحجر؟ .. في تلك اللحظة احست العمياء ان أعصابها تتوتر ، وان نصفها الاسفل قد اصبح مشلولا غير قادر على الحركة .. واعادت بصوتها الاجش القبيح :

ـ حسناء .. اني اموت .. اني اموت ..

وسمعتها حسناء وهي تدخل الى الكوخ .. كانت ما تزال تشد سروالها . واجابت امها بصوت فيه بعض من اللامبالاة :

ـ امي ها انذي ... ماذا تقولين ؟!

ـ اني اموت .. حسناء .. اني اموت ..

ولم تهتم ابنتها لذلك ... فلقد سمعت منها مرارا وتكرارا هذه الشكوى . فهي دائما تدعي الموت ، وتقلب البيت رأسا على عقب .

ـ ولكني ماذا استطيع ان افعل لك يا امي .. ؟ اخرجي الى الخلاء وشمي هواء .. تحركي قليلا .. لماذا انت نائمة ليلا ونهارا ؟

ـ اني اموت ... !

ولكن البنت لم تنتبه .. ولم تعر للقضية اي اهمية . وفي تلك الاثناء بدأت العمياء في السعال . سعلت باختناق وماتت . ولكن احدا لم يشعر بموتها في اللحظة لان حسناء توجهت الى طفليها ، وزوجها لم يكن هناك .. حثتهما على النوم فلم يناما .. وفي الصباح الباكر اكتشفت البنت ان امها ماتت عندما رفعت عنها الغطاء . رأت نهديها المتدليين اللذين ماتت فيهما تلك النخوة وتلك العربدة . لا شك انهما كانا بارزين ، وكانا مثيرين في زمن ما .. ولا شك ان صاحبتهما كانت تملك صدرا يسيل اللعاب .. أما الآن فهما خرقتان باليتان متدليتان. ومن صدرها انتقلت نظرات حسناء الى عيني امها .. فكأنها لم ترهما من قبل . كانتا غائرتين كما لو ان سفودا فقأهما . ماتت الحركة في

وجهها واصبح أزرق . وبدا كأن لا فرق بينه وبين الخيش الذي يتوسده . ما الفرق بينها الآن وبين هذا الخيش ؟ .. الخيش لا يتحرك وهي لا تتحرك .. الخيش لا يحس ولا يشعر ، وهي لا تحس ولا تشعر .. انها لحظات ويصبح الانسان في عداد الاشياء التي كان يعتقد انه سيدها .

وعندما تأكدت حسناء من موت امها صرخت ثم بكت طويلا .وجاءت بعض الجارات فبكين قليلا وانصرفن .. اما طفلاها فلم يبكيا لان جدتهما ماتت ، ولكنهما بكيا لان امهما تبكي بوحشية ، ولانها كانت تعذب نفسها بماسوشية فظيعة ... هشمت القدر الطيني ، واخذت تمزق وجهها بقطع هذا القدر ، فحفرت على خديها خطوطا دموية كبيرة اختلطت ببعض السواد .. كان المنظر مؤلما للغاية . ولكن في النهاية بعد ان تخبطت حسناء على الارض اقترحت على نفسها الجلوس . فجلست فوق التراب وغرست قدميها فيه . ثم اطرقت لوقت قصير . لكنها لم تلبث على هذا الوضع بل امسكت بعود واخذت ترسم خطوطا فوق الارض . خطوطا لم تكن تعني شيئا . فهي لم تتعلم القراءة والكتابة . وفي تلك اللحظة بدأت تخطر لها صور سريعة .. بدت لها امها سالمة العينين ، وبدت لها صورتها وهي تركض في الحقل . ثم ظهرت لها صورة ابيها الذي فقدته وهي صغيرة ، ثم زواجها . واختلطت هذه الرؤى كلها بالخطوط المرسومة فوق الارض . وتنهدت بقوة والقت بالعود الذي كانت تخط به الرسوم الغريبة على التراب . في تلك الاثناء دخل زوجها بالفقيه . ونظرت نظرة اخيرة الى جسد امها . وقالت للفقيه وهي تشير الى داخل الكوخ :

ـ ان الماء ساخن في البرمة ..

وبمساعدة الزوج حمل الفقيه الجثمان الهزيل الى داخل الكوخ، حيث كانت تنتظر العمياء عملية الغسل والتطهير .. اذ يجب ان تلاقي ربها خالية من جميع ادران الدنيا .. ان الجسد خبيث، ولذلك فكل ما هو خبيث يتعلق به . كان الفقيه يفكر في ذلك ، وكان يعتقده بشيء من التحفظ .

***

كانت جلجلة الماء فوق الجسد أليت تجعل حسناء تغرق في تفكير ليس له حدود ولا هدف . طفرت الى ذهنها صورة عيني امها المفقوءتين . واسترجعت بسرعة القصة التي حكتها لها عن سبب اصابتها بالعمى . وبينما كانت حسناء تخط فوق الرمل خطوطها الغريبة ، كانت صور سريعة تتوالى في مخيلتها وتطفر في كل شيء امامها .. هوذا الموت قد حل .. وها هي ذي تجربة مرة لا بد وان يعاني منها كل واحد .. لكن ما افظع الا يستعد المرء لاستقبال التجربة .. انها تأخذنا فجأة ، كما اخذت قبل ساعات روح العمياء ، ولم يبق بعد ذلك سوى جسد بال ، سيكون مصيره التلاشي بعد لحظات . وشعرت حسناء تحت قدميها الحافيتين بالتراب وقد بدأ يسخن . وانسلت فوق خديها دموع فحاولت ان تكفكفها . لكنها لم تجد القوة الكافية لفعل ذلك . وفي تلك الاثناء كانت صورة امها وهي شابة تذهب وتجيء في مخيلتها . انها تريد ان تضع في ذهنها صورة لامها قبل ان تصاب بالعمى . وكلما استرجعت خيوط القصة التي حكتها لها امها تقطع الشريط الى اجزاء .. وعبثا تحاول ان تلملم اطراف القصة .

وعندما رفعت حسناء عينيها عن الارض ، وحولت نظراتها الى السماء الزرقاء بدت لها اللوحة كاملة ، وبدت لها صور باقي الاشياء بارزة المعالم ..

كان الوقت ظهرا عندما انطلقت امها العمياء بسلتها المصنوعة من القصب الى الحقل .. وكانت الشمس محرقة جهنمية .. ولم يكن في السلة سوى خبزة حرشاء وبراد شاي ، وابوها ربما كان خلف هذه التلال التي تفصلها عنه ملقى تحت الشجرة ينتظر غداءه . وفي الطريق الملتهب وجدت نفسها وحيدة تغني اغنية شعبية ملتهبة .. ولم تكن غير الاشجار منتصبة في العراء ، وتحتها ربضت الدواب تمضغ احلامها في كلال . ولان الحرارة كانت مفرطة فانها لم تضع على جسدها سوى خرقة تبين عن جميع معالم جسدها . اما عند صدرها فكان الثوب مفتوحا بحيث ان هوة سحيقة بين نهديها كانت تعكس اشعة الشمس . ولدى كل خطوة كان صدرها يهتز في نشوة .. وعندما تحولت الى المجرى المائي لتبترد وجدت هناك حسون جالسا بجلبابه الصوفي رغم الحرارة الشديدة وقد ادلى قدميه في المجرى المائي . وحاولت ان تتراجع ولكنه فاجأها بالكلام .. وعندما تكلما طويلا اراد ان يقبلها ففرت ثم تبعها .. كانا يضحكان في نشوة عارمة . لكن سرعان ما تحول المزاح الى جد .. كانت تجري وكان يجري .. كانت تقفز وكان يقفز.. ثم .. وبلا مقدمات تعثرت فسقطت . ولحظتها صرخت في الم حاد : « آه .. عيناي .. عيناي !! » وعندما حملت الى البيت وضعت لها ادوية عبثا .. كان عود صغير قد اخترق بؤبؤ عينها اليمنى .. ولكن كل ما في الامر ان العين الاخرى لا تعرف امها كيف اصيبت بالعمى .. كل ما تتذكره ان الادوية كانت توضع لها حتى في العين السليمة .. وبعد عام لم تعد ترى شيئا .. لقد تعطلت حركة عينيها . وها قد اصبحت عمياء ..

***

هنا فقط اختفت معالم اللوحة امام عيني حسناء ، فتركت مكانها وهي ما تزال في شرودها . وتوجهت الى باب الكوخ المقفل حيث كانت جلجلة الماء فوق الجسد الميت تأتيها واضحة .. ثم رجعت الى الوراء وهي حائرة لا تعرف ما عساها تفعل . وكان الكفن الابيض الذي دخل به زوجها قد اثار انتباهها ، فاحست بشيء من السعادة .. لقد ذهبت عنها تلك السحابة التي لا تعرف كنهها والتي ملكت عليها كل حواسها . وعندما كفنوا العمياء وذهبوا بها الى المقبرة ، لم تشاهد حسناء عملية الدفن . بل كانت تجلس بعيدا فوق قبر احد الاموات ، وكانت كأنها لا تعير أي اهمية لموت امها . في ذلك الصباح احست ان حياتها ما هي الا نوم قصير ، تأتي بعده يقظة على حقيقة مرة ومؤلمة . وبينما هي جالسة على القبر كان طفلاها خلفها منشغلين بشجار . لو ان جدتهما ما تزال حية لضربتهما على ايديهما كما تفعل دائما . ولكنها الآن وقد ماتت ، فانهما سالمان من اذاها .. وحثت حسناء طفليها على الا يقوما بحركات فيها وقاحة ، لان الموقف كان يتطلب حركات اكثر رزانة . ولكن الطفلين لم يكونا يعرفان بالطبع معنى الرزانة . فهما يتصرفان بما يوحي به اليهما شيطانهما . لقد تصنعا الرزانة . ولكن عندما نهضت امهما وتوجهت الى الحفرة حيث سترقد امها الى الابد لطم الكبير اخاه ، ففجع هذا الاخير بصرخة سرعان ما كتمها . وكان الكبير يتتبع اذ ذاك امه وهي تتوجه الى قبر جدته حافية القدمين ، وعلى جسدها ثوب احمر ، فيه بقع صمغية سوداء. لقد كانت فكرة الموت لدى الطفلين تتخذ شكلا غريبا الى حد ما . فجدتهما من غير شك لم يتغير فيها شيء ، وهي فورا ستنتقل من عالم الى آخر ، من عالم واقعي الى عالم احلام . ولانها كانت قد قربت لهما عالم الاحلام فهو مألوف لديهما . انها الآن بين الملائكة . وهما قريبا سيلتحقان بها ، هناك حيث سيجدان الغول والشيطان وغيرهما من الارواح الشريرة مكبلة باغلال حديدية ملتهبة . ولم يمض وقت يسير حتى رجعت حسناء الى مكانها الاول فوجدت طفليها وقد افترقا . كان الصغير يلهو على بعد عشرة قبور تقريبا . وكان منشغلا بجمع بعض ما يهمه ، بينما قد عقد الكبير الفة مع الافق الشرقي ، حيث الشمس تلهو في دائرتها النحاسية . فقالت لهذا الاخير ان يذهب فيأتي بأخيه لانهم سينصرفون وقد تمت عملية الدفن .

***

لم يكلف الزوج نفسه الحديث الى زوجته حسناء ، بل مضى في اطراق الى جانب الفقيه الذي لم تكن تبدو على ملامحه آثار لحزن حقيقي ، لانه متعود على حالات نفسية مشابهة . فهو قد اصبح الآن غير قادر على الشعور بالالم والحزن . انه يستطيع ان يطرد الحزن

وان يتنكر له وهذه خاصية تتميز بها نفسية الفقيه لكثرة ما تعودها . فعندما تتكون الحالة النفسية في داخله ، يتكون لديه بالمقابل،استعداد للشعور بها ، وبالتالي لرفضها وللتنكر لها . وبما أنه يمارس عملية الغسل والدفن فان هذه المهنة ستكلفه حزنا دائما .. ولان اي حالة نفسية ليست بدائمة فهو ليس في حزن دائم ، رغم انه يعيش دائما مع الاموات ، حتى لكأنه اصبح في عدادهم .

وكان زوج حسناء مع ذلك قد شعر الآن ، في هذه اللحظة بالذات، بالم حاد .. انه لا يحب حماته. ولكنه مع ذلك يعاني من الم خارج عن طاقته ، ولم يكن بمقدوره ان يطرده .. وهنا ايضا بدا الفقيه اقوى منه . ولكن الواقع أن حسناء هي التي كانت تتألم بصدق . اما الطفلان فقد كانا يتأسفان على شيء واحد هو وقاحة جدتهما المزوجة بحنانها القاسي . فهي تتكلم دائما ، وهي تضربهما دائما ، ولكنها مع ذلك تتقبل شيطنتهما .

عندما وصلت المجموعة الى الاكواخ المتناثرة ، اضطر الفقيه لان يقنع نفسه بالانسحاب ، ولذلك قال للزوج :

ـ عظم الله الاجر ..

ـ اجرنا واجركم عند الله ..

ولم يطل الحوار ، لان الفقيه قد بدأ يتلكأ في مشيته حتى التحقت بهما حسناء وطفلاها وراءها . وكان الفقيه ينتظر وجودها الى جانبه ليقول لها عبارة ترددت في رأسه وقفزت مرات ومرات ...

ـ صبري نفسك ، كلنا للموت ..

فتنهدت حسناء لتقول :

ـ الله يصبر المسلمين اجمعين ..

ـ كلنا للموت ..

والتفت للزوج ، واعلن له في همس انه سينصرف الآن . فدس هذا الاخير يده في جيبه واعطاه درهما ونصفا ، فنظر اليه الفقيه نظرة ذات معنى ، وودع حسناء ليمضي بين الاكواخ ..

***

لم تثر أشياء العمياء الانتباه الا بعد مرور ثلاثة ايام على وفاتها. هناك صندوق قديم من الخشب ، فيه اشياء ليست بذات قيمة،ولكنها مع ذلك تدخل في ملك العمياء . انها ممتلكاتها الخاصة التي لم تطلع عليها احدا الا قليلا . كان الصندوق ما يزال رابضا في الزاوية التي رقدت فيها العمياء طيلة حياتها تقريبا . وفيه ربضت ايضا مسبحة وقطعة حجر صغيرة تستعمل لازالة الاوساخ ، عندما تاخذ العمياء حمامها الشهري في الكوخ . والى جانب هذه الاشياء كان هناك سروالان قديمان من ثوب رخيص ، وازار ابيض لم يستعمل الا نادرا . ومن الاوراق الشخصية عقد زواج قديم تحتفظ به العمياء كذكرى . وهذا العقد لم يلمسه احد حتى هي نفسها منذ سنوات ، ولربما نسيته بالمرة . اما الآن وقد دخلت اياد غريبة الى الصندوق تعبث بمحتواه فان عقد الزواج قد فقد قيمته التي كانت العمياء تسبغها عليه . انه الآن مجرد قطعة ورق .. وها قد تجرأت اياد غريبة على حمل الصندوق الذي لم يكن احد يستطيع ان ينقله من مكانه الى مكان آخر . اما سريرها الذي تغطيه حشية من الخيش مليئة بالحلفاء فلم يثر الانتباه الا مؤخرا . فقد مر على وفاة العمياء خمسة ايام ، ولكن احدا لم يكن يفكر في مسه او استعماله . وهو ايضا سرير كان يحرم على الاطفال لمسه ، لان صاحبته لم تكن تغادره الا لماما . فهي دائما ممددة فوقه كانها غير موجودة على الاطلاق . ولكن صوتها القبيح الخشن هو الذي كان يعلن عن وجودها ، فهي تتدخل في جميع المحادثات وتظهر بمظهر المجربة والحكيمة . وهي بتدخلها تثير قلق ابنتها حسناء ، وقلق زوجها معا .. ورغم ذلك فان ابنتها كانت تقف الى جانبها ضد زوجها . اما الآن فالسرير قد خلا من صوت لا من جسد ، لان الصوت هو الذي كان موجودا لا الجسد ، ولان الصوت وحده هو الذي كان يعلن عن شخصية العمياء . انها تتكلم وتتكلم ولا تصمت ابدا . وها قد فكر الزوج الآن في استعمال سريرها . لقد طرح الفكرة فجاة على حسناء ذات عشية ، فبينما كانت الاسرة تتناول كؤوس الشاي قال الزوج لزوجته :

ـ حسناء .. الا ترين معي ان هذا السرير يصلح لان ينام عليه احد الطفلين ؟

ودون ان تكلف نفسها النظر الى وجهه ، اجابت بصوت واضح :

ـ سينام عليه احدهما بالطبع .. او سوف نرى فيما اذا كان يتسع لنا نحن الاثنين .

ـ لا .. انه صغير .. لكن يمكن ان ينام عليه الطفلان معا .

بقيت الفكرة على هذا الشكل في رأس حسناء وزوجها ، ولم يحاولا ان يناقشاها في تلك اللحظة .. لقد طرحت وكفى . وكما انها طرحت ببساطة فحلها سيطرح ببساطة ايضا .. في المساء سينام احد الطفلين او هما معا على سرير جدتهما . وانه من المحتمل الا ينام عليه احد الزوجين لانه صغير ولن يتسع لهما .. ثم انهما يتوفران على سرير خشبي ، اما الطفلان فهما لا يتوفران على سرير ، بل ينامان فوق الحصير بعد ان تلفهما امهما في بعض الخرق التي لا تقل رداءة عن التي يلتف بها ابواهما .

وهكذا فعندما حلت ساعة النوم ، امرت حسناء ابنها الكبير بأن يذهب فينام فوق سرير جدته . ولكن الطفل اظهر بعض التحفظ في بادىء الامر ، لكن سرعان ما توجه هو واخوه الى السرير وتمددا فوقه، ولم يكونا يشعران اذ اذاك بأي شعور غريب ، لان الضوء كان ما يزال يطرد الاشباح . لكن عندما اطفأت امهما الضوء بدأ يحتكان ببعضهما . فقد جعل الكبير يتخيل تلك الارواح الشريرة التي كانت جدته تحكي له عنها . اما الصغير فلم يكن خياله بأقل نشاطا من خيال اخيه . فقد نشطت ذاكرته ونشط تخيله . وبدأ يسترجع صور كل العفاريت وكل الشياطين . ثم بدت لاحد الطفلين جدته وهي تضحك وتضحك كما لو انها عفريت عاد منتصرا من جولة مسائية في الادغال النائية .وكان الطفلان يحتكان ببعضهما بقوة . لكن ذلك لم يطل بل ان الصغير لم يطق الوضع . ولبثا صامتين وقتا ليس بيسير واطلقا العنان لخيالاتهما تحلق بهما في عوالم مفزعة مرعبة . ولم يدر الصغير كيف يقاوم هذا الجيش من الابالسة . وتخيلها تنهشه بالاظفار والانياب ، فانسل في الظلام الى امه وابيه ، ولم يطمئن حتى وجد يده ممسكة بجسد امه . وهنا تبعه الكبير بعد قليل من التردد . فقامت الام وانارت المصباح البترولي لتستطلع الامر .

ـ لماذا تركتما سريركما ؟

قال الصغير :

ـ لقد خفت ...

قالت الام :

ـ لماذا تخاف .. ؟

اما الكبير فقد كان لا يزال غارقا في تفكير بعيد ، وكان يعض على شفته السفلى . وقال لامه بعد هنيهة من الصمت :

ـ انني لن انام هناك ..

وقالت الام :

ـ ايها الجبانان !!

ولم تضف شيئا . بل قامت للتو تعد لهما خرقهما فوق الحصير. وعندما تمدد الطفلان فوقه ، كانت خيالات مرعبة ما تزال تلح عليهما . ولكنهما مع ذلك كانا يشعران بقليل من الاطمئنان قرب ابيهما وامهما. ولبثا يسرحان في ذلك العالم الذي بدأت اشباحه تتلاشى شيئا فشيئا تحت وطأة النوم . وفي الصباح فكرت الام والاب بجد في مسألة

السرير ، فاقترحا ان يتركاه هناك بعد ان توصلا الى انهما ليسا في حاجة اليه .

***

ارخت حسناء جسدها الى الخلف . واتكأت على الكوخ بينما انغرست اصابع رجليها في الرمل . كان طفلاها خارج الكوخ يلعبان تحت شجرة التين اليابسة . وبذلك وجدت فرصة تخلو فيها الى نفسها . لم تكن في بادىء الامر تفكر في شيء بعينه . ولكنها بعد ذلك نشط تفكيرها ، واصبحت عدة صور تترى في ذاكرتها . ولم تهتم للحرارة التي بدأت اذ ذاك ترتفع بعنف . كان شعور حسناء بوجودها تحت الظل كافيا وحده لطرد الحرارة المفرطة . ولم تكن لتتحرك او تبدي اي استعداد للقيام بفعل ما . في تلك الاثناء فقط عندما رفعت عينيها وجدت ان سرير امها رابض في الزاوية . وها قد انهالت في رأسها الآن جدران الزمن الضائع ، فرأت امها فوق السرير ممددة ملفوفة في الحايك الصوفي . وسمعت صوتها قادما من بئر عميقة ، اجش ، خشنا وبذيئا كما كان .. وارادت ان تكلم امها العجوز العمياء ولكن دون جدوى . كانت اصابع قدميها تنغرس بقوة في الرمل . وكان جسدها قد ارتخى كلية على الكوخ . شعرت ان آلامها بلا حد.وحاولت ان تنهض لتغير من وضع السرير فلم تستطع . لقد اختفت معالم العمياء ولم يبق منها سوى هذا السرير . اما الاشياء الاخرى فقد تفرقت وضاعت في جوانب الكوخ .

بدت لحسناء الآن جميع تصرفات امها جلية وواضحة . وانتفضت انتفاضة عنيفة عندما طفرت الى مخيلتها صورة امها وقد ماتت : عينان مفقوءتان ووجه ازرق فاحم . ثم تذكرت ذلك الناب الوحيد الاصفر الذي ينغرس في فم امها العمياء . وطفت على حسناء صور رهيبة اخرى تجاوزت عالم الواقع الى عالم الاشباح والارواح .. ولم تعد تختلف عن طفليها في شيء . واجهدت نفسها لكي تقف . ثم غيرت رأيها وامسكت بعود وبدأت ترسم فوق التراب صورا واشكالا غريبة لم تكن شبيهة بتلك التي رسمتها في اليوم الاول من وفاة امها . وعندما هزت عينيها واجهها السرير مرة اخرى ، فسالت من عينيها دموع دفيئة . وللتو انتفضت وهي تقرر ان تنهي حكاية السرير هذه . ونادت بصوت مرتفع على طفليها فلم يجبها احد . كان الطفلان قد ابتعدا عن الكوخ كثيرا . وفجأة مر جعل امام عيني حسناء فدار دورة عنيفة وضربها على وجهها وسقط . ثم طار الجعل من جديد . ولمست حسناء موضع الضربة قبل ان تدلف الى الكوخ.

وفي المساء اقترحت على زوجها ان يذهب بالسرير فيبيعه .. ونظر هذا الاخير في وجهها مليا قبل ان يوافقها على رأيها . فبعد ان ضاعت معالم العمياء ، وتلاشت في الكوخ لم يبق سوى هذا السرير الذي يذكر ، في كل آونة ، بصورة لامرأة ما ، وبصوت كان يأتي من هناك .. ثم بكلمات وعبارات كانت صاحبتها تدعي الحكمة والفطنة .

وحمل الزوج السرير في اليوم التالي فباعه بثمن بخس،واستمر الطفلان ينامان على الحصير ، وحسناء وزوجها على سريرهما الخشبي القديم .. لقد كان هناك صوت اجش ، لكنه بدأ يفقد حدته وخصوصيته الآن .. وها قد اصبح صوتا كباقي الاصوات ، ولم تعد له تلك الحدة التي كانت فيما قبل في رأس حسناء ولا في رأس زوجها. انه الآن صوت كباقي الاصوات ، ليس له لون ، وليس له حدة او برود .. ولكن مع ذلك فان صورة العمياء بقيت عالقة في كل زاوية وفي كل مكان . كان الطفلان عبثا يحاولان ان ينسيا ، وكانت امهما تحاول ان تفعل كذلك .. وحتى الزوج الذي كان يرغم نفسه على النسيان لم يستطع . لقد كانت الصورة اقوى من كل شيء .. صورة الحياة قبل الموت .

القنيطرة (المغرب)

محمد زفزاف

هذا الشهر

تشريح جثة الاستعمار

(الجزء الاول)

تأليف غي دوبوشير

ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب